

الخطاب النحوي في الأندلس بين المتابعة والممانعة

الأستاذ: أ. د. أحمد فليح

قسم اللغة العربية

جامعة جرش - الأردن

Grammatical Discourse in Andulisia Between Tradition and Refusal

Abstract

This paper has dealt with syntax in Andulisia. It shows that there have been no independent grammatical schools in Andalusia. Rather there existed a group of grammarians who followed suit Arab grammarians in the East. Amongst them, there appeared some, e.g. Ibn Mada who refused to adopt the general methodology of such schools and adopted a methodology of his own.

ملخص البحث

رصد البحث توجهات الدرس النحوي في الأندلس، فتبين أنه ليس في الأندلس مدرسة نحوية مستقلة، بل ثمة نخاة، جلهم كان متابعاً للمشاركة، و نخض من بينهم صوت ممانع للمنهج العام و متخذ، هو ابن مضاء القرطبي، حمل مشروعاً ممانعاً.

فتح العرب المسلمون الأندلس عام 92 هـ الموافق 711 للميلاد، وهي شبه جزيرة متزامية الأطراف تبلغ مساحتها ستمئة ألف كيلو متر مربع، وذلك في عامين اثنين.

ساعد على سهولة الفتح القوة العقديّة لدى المسلمين وحظوهم بقيادة عباقرة، نذكر منهم بإجلال وفخر، طارق بن زياد، وموسى بن نصير. واجتمعت عوامل سهلت الفتح منها قوة الروح المعنوية لدى المسلمين الفاتحين يتغيون نشر الإسلام، ومنها الانشقاق الروحي في البيت الحاكم من القوط وقتئذ، ثم الاستبداد والظلم المعيش آنذاك، فكان الناس يتطلعون إلى الخلاص، ويتوسمون في المسلمين أن

يكونوا منقذين، مخلصين للمواطنين من الظلم والقمع والفقر والاستغلال والتناحر الداخلي. فأضحى الناس يرغبون في التخلص من حكم القوط من أية جهة كانت.¹

والداخلون إلى الأندلس عقب الفتح كانوا عرباً يحملون بين ظهرانيهم الإسلام ديناً، والعربية لغة وحضارة وفكراً. وكانوا يومها أمشاجاً من القبائل العربية الوافدة من المشرق العربي. يحتقبون هوياتهم ومشروعهم الحضاري. قراءة في المشهد الجيوسياسي الأندلسي

الأندلس بيئة غاية في الجمال، وتدفع الحياة فيها، مما رغب العرب الفاتحين في الاستقرار والإبداع فيها.

يا	أهل	أندلس	لله	دركم	ماء	وظل	وأهنا	وأشجار
ما	جنة	الخلد	إلا	في	ولو	تخيرت	هذا	أختار ²

والأندلس بلاد جميلة، حضرة، وماء، وبساتين وأثمار، وجبال وسهول، وفاكهة ورياحين، ثم أضفت الحضارة الجديدة الوافدة عليها من الرقي ما جعل سكانها يحافظون على روح الجمال الطبيعي في بلدتهم، وينمونهم ويزيدون فيه، فأصبحت الأندلس أغنية عذبة في فم الشاعر ينشدها وهو بين ظهرانيها، وأنشودة ساحرة على لسانه يرددتها وهو مغترب عنها.³

وكان من أسوأ ما حمله معهم العرب إلى الأندلس العصبية القبلية والعشائرية التي تشربوها في منابتهم، وكانت أداة لإفراز ما سمي يومئذ بملوك الطوائف المتناحرة التي أثأت جذور الوجود العربي بالتناحر والتقاتل، والتواطؤ مع العدو، مما أفضى إلى سقوط الأندلس، وفقدان تلك الجوهرة الثمينة، وكان سقوطها من أعظم البلاء، الذي يعد أنكى من نكبة فلسطين واستلابها، إذ من المتعذر التفكير بإعادة الأندلس، على حين ما يزال الأمل معقوداً باستعادة فلسطين حين يلتئم شمل الأمة، وتستعيد مجدها، وتبديل الظروف والموازن.

الجسم في الأندلس والروح في المشرق:

والعرب من أكثر الخلق التصاقاً بالماضي، وبالأصل الاجتماعي وذلك ملموح من الخطاب القرآني الكريم، إذ استنكروا دعوة القرآن الكريم إلى هجران ما يعبد الآباء من أصنام ونحوها، وللحفاظ على الهوية الجاهلية، والاستمسك بالمشروع القبلي الاجتماعي. ومن المؤشرات على شدة تجذر الأندلسيين بأصولهم المشرقية، ومبلغ تعلقهم بتلك الأصول، أن جل فعاليات حياتهم كانت ترتبط بسبب أو بآخر بالأصول المشرقية، يقول ابن بسام في الذخيرة:

" (إن أهل هذا الأفق - الأندلس - أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعت بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً) " ⁴

¹ - (تاريخ صدر الإسلام: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ص 154)، (التاريخ العباسي الأندلسي، د. سعيد عاشور، بيروت، 974، ص 259).

² - (ديوان ابن خفاجة 72)، (الأدب العربي في الأندلس: د. عبد العزيز عتيق، 292).

³ - (الأدب الأندلسي: د. مصطفى الشكعة، طبعة خامسة، بيروت، ص 32).

⁴ - (الذخيرة لابن بسام، 210/1)، (الفن ومذاهبه لشوقي ضيف، 208)، (الأدب العربي في الأندلس: د. عبد العزيز عتيق، 159).

والأسماء مشرقية، وأسماء المدن والقطائع، ويلقبون نوابغهم بأسماء المشاركة.

فالرصافي ابن رومي الأندلس، ومروان بن عبد الرحمن ابن معتز الأندلس، وابن خفاجة صونبري الأندلس، وابن زيدون بختري الأندلس، وابن دراج القسطلبي متني الأندلس، وحمة بن زياد خنساء المغرب. تجسيدا لعمق انتمائهم، وشدة ولائهم لوطنهم، إذ جعلوا من جهود المشاركة النموذج الذي يحتذى، والمثال الذي يقتفى. حتى الشعر الأندلسي، في جل رؤاء وتجلياته "وأيا ما كان فشعراء الأندلس في نظرنا لم يفلحوا كثيراً في استقلالهم عن الشرق في ابتكارهم وتجديدهم، كما لم يفلح في ذلك اللغويون والنحويون".¹

على أنه من الإنصاف أن تذكر أن لهم بدوات وتجليات إبداعية، لا يمكن غمطها أو إقصاؤها. ولكنهم في الجملة ظلوا متعبدين الموروث الشرقي، وعبرة "هذه بضاعتنا ردت إلينا" تبقى مؤشراً على تلك المتابعة والتقليد للحضارة العربية، التي عدوها الأصل الذي ظلوا ينسجون على منواله، ويجرون في مضماره، تجسيدا لتعالق الأرواح وتعانق الرؤى في الأصول والجذور، و برهاناً على وحدة الثقافة وتوحد الفكر، مع التنوع والتعدد، والأصالة والثناء.

فالخطاب الأندلسي، على الجملة، كان محافظاً، نزاعاً إلى تقليد المشاركة، واستبقاء العيون على نتاجاتهم والتأسي بها. ومن أظهر المؤشرات على التواصل مع أهل المشرق تلك الرحلات المتبادلة من الأندلس إلى المشرق، وبالعكس.²

وكان ممن رحل إلى المشرق في طلب النحو والصرف ابن مالك صاحب الألفية ومنهم ابن عبد ربه، صاحب العقد، والشرشي، ومحمد الزهري الإشيلي.³

ومنها جمع الكتب والمصنفات لأهل المشرق لوضعها تحت أنظار الناس لظنهم أن حل الأفكار التي نسلت كانت خارجة من رحم الفكر العربي المشرقي، ولاستبقاء اللحمة مستديمة بين النبعين الكبيرين.

الخطاب النحوي الأندلسي:

أقام العرب في الأندلس زهاء ثمانية قرون منذ عام 92هـ الموافق 710 للميلاد، وخرجوا منها عام 898هـ الموافق 1492م، وأشادوا حضارة عريضة انطوت على إبداع متنوع انتظم جل الفاعليات العلمية والأدبية، واللغوية، والنحوية والفلسفية، وقد انتهت إلينا من تلك العهود الزاهية منظومات نحوية ولغوية جليلة، ومخرجات شعرية شكلت منظومة فكرية مشتهرة ورزمة من المصنفات المأهولة بالفكر والإبداع، والاستنباط، لا يمكن أن تغمط أو تتحد.

كانت جسور التواصل بين الأندلس والمشرق ممتدة، والمسالك بينهما سابلة بالرحلات العلمية، فالرحلات العلمية ناشطة فذكر ابن الزبيدي من العلماء الأندلسيين الراحلين إلى المشرق أبا موسى الهواري، والغازي بن قيس وجودي النحوي (ت189هـ) الذي لاقي الكسائي والفراء، وغيرهما، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي إلى الأندلس، وجعل الزبيدي علماء النحو الأندلسيون في ست طبقات.⁴

¹ - (ظهر الإسلام: أحمد أمين، 104/3).

² - (نفع الطيب، 217/2).

³ - (نفع الطيب، 316/2).

⁴ - (طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي، ص 253 وما بعدها)، (وينظر المدارس النحوية: د. شوقي ضيف، 288). ت

وتطالعنا جمهرة عريضة من نخاة الأندلس الكبار منهم: الأعلم الشنتمري (ت476هـ) وابن السيد البطليوسي (ت521هـ) وابن الباذش (ت528هـ) وابن الطراوة من المرية (ن528هـ) وابن طاهر (ت580هـ)¹ والسهيلى (ت581هـ) وابن خروف القرطبي (ت609هـ) والشلوبين (ت645هـ) تلميذ السهيلى وابن هشام الحضراوي تلميذ ابن خروف، و توفي بتونس سنة (ت646هـ). ومنهم ابن مضاء القرطبي (ت592هـ) صاحب كتاب الرد على النحاة. وكان حجة في الفقه الظاهري قرأ كتاب سيبويه على ابن الرمالك. ولنا معه وقفة طويلة. ومنهم ابن عصفور الإشبيلي (ت663هـ) تلميذ الشلوبين، ومن أظهر تأليفه المقرب، والممتع في التصريف ومنهم ابن مالك الجياني المتوفى سنة (ت672هـ) صاحب الألفية المشتهرة في النحو. ومنهم ابن الحاج (ت651هـ) وابن الضائع (ت680هـ) وابن أبي الربيع الإشبيلي (ت688هـ) وأبو حيان الغرناطي الأندلسي (ت745هـ)² وهم عمالقة كبار في جهودهم، بيد أن جلها كانت متابعة لآراء علماء النحو في المشرق. فالمشروع النحوي كان ضخماً، ولكن منهج الخطاب كان يقتفي علماء المشرق، وكان الهدف جليلاً هو تحوّل العربية وحفظ الألسنة والأقلام من الانحراف والانجراف وراء اللحن أو العاميات. على أن المشهد لم يكن ليخلو من أصوات مجددة ورؤى متفردة أغنت الحالة العلمية، أو صححت أو دعت إلى التصحيح كما فعل ابن مضاء الذي ضاق بمنهج النحو في المشرق، وفي الأندلس.

هل كان للأندلسيين مدرسة نحوية متميزة:

يذهب بعض الدارسين إلى أن لدى النحاة الأندلسيين مدرسة أصيلة، تستجمع آراء علماء النحو الأندلسيين الفذة. وإلى هذا ذهب شوقي ضيف وعدد جملة من النحاة الأندلسيين، وتكلف ذكر جل مصنفاتهم³. ويذهب المرحوم الأستاذ سعيد الأفغاني مذهباً آخر مغايراً فيقول: "لا يخطئ دارس مطولات النحو أن يقع على آراء الأندلسيين في جزئيات نحوية، فأسماء ابن خروف (ت609هـ) وابن عصفور (ت663هـ) والشلوبين (ت645هـ) وابن الضائع (ت680هـ) وغيرهم تذكر بين أسماء النحاة المشاركة حين عرض الآراء في الخلاف، إلا أن متصفحها لا يجد فيها ما يميزها من غيرها من التخرجات المختلفة المعروضة في القضية الواحدة أو بعبارة أخرى: ليس لآراء الأندلسيين هؤلاء سمات مدرسة خاصة"⁴. فإن جبهته بأسماء أندلسية، في النحو، لامعة من أمثال ابن مالك صاحب الألفية، وكذلك العالم المشتهر أبو حيان (ت745هـ) أجابك من فوره: هذا ظن يروج ابتداء لكنه لا يثبت عند النظرة الفاحصة: فابن مالك قرأ النحو بالشام بعد تلقيه على الشلوبين ثلاثة عشر يوماً، فهو إنما أخذ هذا العلم من خاصة نفسه⁵. وإن اعتبرنا الجوهر وجدنا هذين الرجلين في توافيهما شرقياً محضاً.

¹ - (المغرب في حلى المغرب، 253/1، الهمع للسيوفي، 158/1)

² - (المغرب في حلى المغرب، 253/1، الهمع للسيوفي، 158/1)

³ - (المدارس النحوية: شوقي ضيف، 288).

⁴ - (من تاريخ النحو: سعيد الأفغاني، دار الفكر، طبعة ثانية، 100).

⁵ - (من تاريخ النحو، 101، وينظر بغية الوعاة للسيوطي، 53).

أما أن ابن مالك وابن خروف شرعا الاستشهاد بالحديث الشريف والاحتجاج به في قضايا اللغة والنحو مخالفاً بذلك - كما زعمو - سنة من قبلهم من النحاة. والصحيح أن الجوهرى، وابن سيده، وابن فارس، وابن جني، وابن بري... كلهم احتجوا بالحديث، فنزعة الاحتجاج من قبلهما من الأئمة المتبوعين في المشرق.¹

ونذهب إلى ما ذهب إليه الشيخ المرحوم سعيد الأفغاني، فإن أنت ألمت بأي مصنف نحوي لعالم نحوي أندلسي ألفيت المنهج المشرقي نفسه في العامل، وفي العلل، وفي الشواهد، وفي تجلية المسائل والأنظار. فلنذهب إلى أحد هؤلاء الأندلسيين وهو ابن عصفور في المقرب مثلاً، فنجدته يتقبل العلماء المشاركة في المنهج، وفي المحتوى.

فيبدأ ابن عصفور في المقرب بالمسائل النحوية، ويرجئ المسائل الصرفية إلى آخر المصنف، وهو بذلك يقتضي مناهج القدماء من أمثال سيويه، والمبرد وغيرهم. والمنهج نفسه في عرض المسائل على وفق نظرية العامل، والعلل النحوية، والشواهد النحوية، وكذلك الأنظار والرؤى والأوجه الإعرابية.²

ولما اختصر أبو حيان الأندلسي (ت745هـ) المقرب ليقربه في (تقريب المقرب) لم يفعل شيئاً بل حذف الشواهد، واستبقى باقي المحتوى.³

وإن أنت قايست صنيع علماء الأندلس في المسائل النحوية والمناهج لوجدتهم يسامتون سنن المشاركة من النحويين العرب، القذة حذو القذة إلا القليل، وذلك في الرؤى، والمقاربة التحليلية للنصوص.

وقد يكون البدء في بعض المظان بالكلمة والكلام، ثم يشرح المؤلف تلك الأقسام وخصائصها ووظائفها.⁴

فهذا المنهج الشرقي كانت أصداؤه رجعاً واضحاً لدى علماء الأندلس. فهذا الصوت هو صوت المتابعة.

الخطاب الممانع:

وهو صوت هادر رافض مصدره الأندلس ومن قرطبة حصراً، إنه ابن مضاء القرطبي (ت592هـ) في مصنفه الموسوم: الرد على النحاة. وسنجري مقارنة لهذه الدعوة التي أذن بها، وصداها في الدرس النحوي.

كان ابن مضاء برماً بالمناهج والأدبيات القارة في آليات الدرس النحوي، وظل متضائفاً من كثرة الأوجه والآراء، التي أفضت إلى تورم السفر النحوي، و أجهزت أذهان المتلقين، وجعلتهم يجفلون من الخطاب النحوي، وتداعيات القولان والأقوال في المسألة الواحدة، مما اقتضى تضاييق الشدة بله العلماء من هذه الأوجه و التشعبات المخلة المؤرقة.

أجل تلقينا ذلكم الصوت المناوئ من لدن عالم جليل أذن بأطروحاته من قرطبة، وكانت رجعاً لتداعيات مذهب ظاهري كان فاشياً بين ظهرائي الناس يومئذٍ، صوت أبي متابعة ما عليه الدرس النحوي، فهاجم وانتقد بحصافة، كيما ينقي النحو مما علق به من أدران وعناصر مستحلبة من خارج جسم اللغة.

¹ - (من تاريخ النحو: سيد الأفغاني، 102).

² - (المقرب لابن عصفور، 48/1).

³ - (تقريب المقرب لأبي حيان الأندلسي، تحقيق محمد جاسم الدليمي، 142).

⁴ - (المفصل للزمخشري، دار الجبل، ص6). (وشرح المفصل لابن يعيش، 21/1).

فحوى دعوة ابن مضاء:

لم تكن دعوة ابن مضاء سهلة المسلك، و إساعتها و إسلاكها إلى الناس عسر، من قبل أنها تقوض ما تواضع العلماء عليه دهرًا، وتنقصن ما حظي به العلم من التمكين والرسوخ، وكأن لسان ابن مضاء يصدع بنظريته غير آبه ولا وجل، وكأن حاله يقول:

الحر من خرق العادات منتهجاً نهج الصواب ولو ضد الجماعات

وهو ذكر ذلك أذ قال: أتراحم بغير عود، وتكاثر برذاذك الجود... وهل أنت إلا كما قال كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يغيرها وأوهى قرنه الوعل.¹

وتترأى لنا أطروحات ابن مضاء في المسائل الآتية:

الدعوة إلى إلغاء نظرية العامل

الاعتراض على تقدير العوامل المحذوفة

الاعتراض على تقدير تعلقات المجزورات

الاعتراض على تقدير الضمائر المستترة في المشتقات

الاعتراض على تقدير الضمائر المستترة في الأفعال

باب التنازع، وباب الاشتغال

الدعوة إلى إلغاء العلل الثواني والثالث

الدعوة إلى إلغاء القياس

الدعوة إلى إلغاء التمارين غير العملية²

هذه أظهر الفضاءات التي سعى ابن مضاء بها، لتغيير إيقاع الدرس النحوي، باستشراف آفاق جديدة تخفف من غلواء استجلاب عناصر من خارج جسم اللغة.

هذه الدعوة التي عصفت بها ابن مضاء الذهن العربي، نبعت من قرطبة بالأندلس، وكانت وليدة مذهب ديني (ظاهري) كان فاشياً في ذلك الزمان، وهي دعوة أصق بالأسلوبية المعاصرة، وفيها رسيس من الوصفية المشتبهة في أيام الناس هذه.

ولا يخفى أن لهذه الدعوى أصولاً لدى بعض المفكرين النحاة في مناكفتهم، وليست دعوة قطرب (ت206هـ) ببعيدة عن الأذهان في أنه لا قيمة للعامل النحوي في الحركات الإعرابية يقول:

"إنما أعربت العرب كلامها لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، وكانوا يبطئون عند الإدراج، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك، جعلوا التحريك معاقباً للإسكان ليعتدل الكلام".³

ولكن نظرية العوامل النحوية ظلت مستحوذة على الفكر النحوي، لدرجة أنها عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) إلى مئة عامل.¹

¹ - (كتاب الرد على النحاة لابن مضاء، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، 74).

² - (الرد على النحاة، 71).

³ - (الإيضاح في علل النحو للزجاجي، ص70) (في التحليل اللغوي: د. خليل عمارة، طبعة أولى، ص67).

تداعيات نظرية ابن مضاء:

كان للرؤى التي أذن بها ابن مضاء القرطبي، في آلية تعاطي الدارسين، كان لها صدى لدى جمهرة من الدارسين، فانبروا يهاجمون نظرية العامل، والعلل، والتمارين الافتراضية، بما ينم على أن ثمة وعياً على أبعاد تلك الرؤى، وأنها دخلت مفاصل البنية المنهجية في الدرس النحوي، وكلهم رموا الدرس النحوي ونظرية العامل عن قوس واحدة.

نجمت منظومة من الدارسين المحدثين شغبوا على النظريات القديمة، والمناهج النحوية السائدة، كان منهم إبراهيم مصطفى في مدونته اللغوية الموسومة بـ "إحياء النحو" وإذا وجب أن ندرس علامات الإعراب على أنها دوال على معان... فأحرى أن تكون مشيرة إلى معنى من تأليف الجملة وربط الكلم وهو ما نراه.²

فالضمة علم الإسناد، والكسرة علم الإضافة والارتباط فأما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شيء، بل هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب... فهي بمثابة السكون في لغة العامة.³

وانتفع بهذه الأطروحة المضائية، تمام حسان ووظيفها في رؤاه، وكذلك مهدي المخزومي، ومحمد عيد، وإبراهيم السامرائي، وعباس حسن في اللغة والنحو، الذي هاجم نظرية العامل، والتعليل بضراوة.⁴

بيد أنه في مصنعه الموسوم: النحو الوافي ظل يستحضر نظرية العامل ويوظفها في دراساته. ومنهم المرحوم خليل عمارة وغيرهم كثر. وهبت كوكبة من الحراس على اللغة، الغير على دعومتها والارتقاء بها، وألظوا بدعوة: الإصلاح، أو التيسير، أو التجديد، أو التعريب، أو التطوير، وغيرها من مسميات، تستهدف الدرس النحوي بشيء من التغيير.⁵

وحل هذه الدعوات ظلت منقوصة قاصرة عن الإتيان بالبدل المقنع لنظرية العامل، وظلت صرخة في واد.

على أن لها تأثيراً أحياناً غير منكور، فهي شجعت على التخفف من الاعتماد على الشواهد المقيدة، وخففت من ظاهرة التعليل المؤرقة والمضنة لدى القدماء، فتناهى إلينا: النحو المصفى لمحمد عيد، والنحو الوظيفي لعبد العليم إبراهيم، والنحو الشافي لمحمود حسني، بأسلوب شائق رائق وعبارة طليعة وجيزة، وفي منأى عن أعباء النحو المبهظة لدى القدماء.⁶

فالدعوة الكريمة المباركة التي هبت نسائمها علينا، كانت من قرطبة من الأندلس، صادفت خالياً فشغلته، وآتت أكلاً طيباً، وثماراً مباركة. فخف الميل إلى العلل النحوية والغلو فيها، بل يمسه الدارس مساً رقيقاً، وصار التخفف من التمارين والأوجه الإعرابية، مسلكاً يتقصده الدارسون، ويتحامون الأوجه المتعددة، بيد أن نظرية العامل في النحو العربي ظلت متأصلة مكينة لم يزعزحها أحد، ولم يتأت لأحد أن يأتي ببدل مقنع عنها. إلا أن حياة جديدة دبت في عروق الدرس النحوي، وتحس رسيماً من التجديد بادياً يتعبر لمناهج القدماء في العلل، والحجاج، والأوجه، ولي ذراع اللغة، واجتلاب عناصر من خارج الجسم اللغوي لتستقيم نظرياتهم وتوجيهاتهم.

¹ - (العوامل المثة: عبد القاهر الجرجاني، 73).

² - (إحياء النحو: إبراهيم مصطفى، 1959، ص 49).

³ - (إحياء النحو: إبراهيم مصطفى، 50).

⁴ - (اللغة والنحو: عباس حسن، طبعة ثانية، ص 143).

⁵ - (ينظر على سبيل التمثيل: تجديد النحو، وتيسير النحو لشوقي ضيف، والمفتاح في تعريب النحو للمحامي محمد الكسار، والنحو الجديد لعبد المتعال الصعيدي، ويوسف السودا في الأحرفية، وأنيس فريحة في: نحو عربية ميسرة، وفؤاد طرزي في سبيل تيسير العربية وتحديثها، وأحمد عبد الستار الجوارى في كتابه: نحو الفعل"، ويوسف كركوش في مصنفة: رأي في الإعراب، ومناهج تجديد لمحمد الخولي وغيرها).

⁶ - (دراسات في اللغة والنحو: د. أحمد فليح، المركز القومي للنشر، اريد، 420/2).

وهكذا استحال الخطاب النحوي العربي المعاصر إلى خطاب عقلائي مقنع يتجنب الخلافات المستحرة بين النحاة، وينحو منحى التوحيد والائتلاف في المسألة الواحدة، كي تقدم للناشئة سائغة مطردة منسجمة، ولا سيما النحو التعليمي من خلال النحو التداولي، والوظيفي المثمر في الأنساق اللغوية المعيشة.

وبذلك نلاحظ في الدرس النحوي الأندلسي أنه في المجمل كان تقليداً ومتابعة لجهود النحويين في المشرق، وظلوا أسرى لمناهج المشرقيين، ولا سيما الالتزام بنظرية العامل، والتعليل للتوجه العام وهو رؤية خاصة لابن مضاء القرطبي.

وثمة ملحظ أننا لا نحس أثراً من أي وجه بالمناهج أو بالتفكير الغربي الذي كان متاخماً للعرب في الأندلس من خلال التحاكك مع الآخر، لأن المستوى الفكري الغربي كان أدنى مستوى من التفكير العربي، بل كان العلماء العرب متفوقين على أقرانهم في تلك الساحة، وعلى ذلك الصعيد.

الخلاصة:

بعد قراءة المخرجات النحوية في الأندلس، والوقوف على جل الرؤى، تبين لنا الآتي:

- كان الخطاب النحوي الأندلسي، في جل مراحل، يحمل مشروعاً ثقافياً جليلاً، أسهم في الحراك العلمي المنجز يومئذٍ، وتطالعنا قامات ورموز ثقافية كانت لها يد لا تحدد في المقاربات النحوية.
- لم يكن في الأندلس مدرسة نحوية مستقلة كمدرسة البصرة أو الكوفة.
- جل علماء النحو الأندلسيين كانوا يمتحنون من فكر النحويين المشرقيين ويتقبلونهم ويجعلونهم النموذج والقدوة، والمثال الذي يحتذى، سواءً من الكوفة أو البصرة أو غيرها.
- برزت من الأندلس دعوة كريمة للرد على النحاة، وتنقية النحو من الأدواء التي كانت تثخفه، وذلك على يد العالم الجليل ابن مضاء القرطبي، وذلك باستهداف نظرية العامل، وإلغاء العلل الثواني والثالث، وإلغاء التمارين الافتراضية بقصد تهذيب الدرس النحوي في المحتوى، وفي المناهج.
- كانت ثورة ابن مضاء صرخة في المشهد العلمي النحوي وقتئذٍ وكانت لها تداعيات واسعة، في التعاطي مع النصوص، في الحالة المعيشة، وسرعان ما تقاطر جمهرة من العلماء إلى مهاجمة كثير من المناهج والرؤى التي كانت موظفة في المقاربات اللغوية والنحوية، فكانت أشبه بهزة حركت الأقلام الهاجعة، والهمم الفاترة للإصلاح وزعزعت القنوات القارة إلى حد التوشن والتنمط، فنتجت مصنفات ندية تحامت كثيراً من المناهج التقليدية، وعصفت بذهن الدارسين واستمطرت أفكاراً نحوية سلسلة نثرية يتقبلها المتلقي بأريحية.
- الدرس النحوي في الأندلس كان بين متابعة جارفة وممانعة ناشزة، ثائرة داعية إلى الإصلاح والتغيير من منظور المذهب الظاهري القريب من المنهج الوصفي، والمنهج الأسلوبي الذي يحيد العناصر غير اللغوية، أو المفترضة من خارج الجسم اللغوي، ويكرس الدرس في اللغة وحدها.
- لا تأثير للآخر من غير العرب، في الدرس النحوي، إجمالاً. مع التخالط والتحاكك بين الثقافتين.

قائمة المصادر و المراجع:

- 1 - إحياء النحو: إبراهيم مصطفى ، دار المعارف.
- 2 - الإيضاح في علل النحو: الزجاجي ، تحقيق مازن المبارك ، الرسالة.
- 3 - الأدب العربي في الأندلس: عبد العزيز عتيق ، ط 5 ، بيروت 978م.
- 4 - بغية الوعاة: السيوطي / القاهرة.
- 5 - تاريخ صدر الإسلام : عمر فروخ ، دار العلم للملايين، بيروت 974 م .
- 6 - التاريخ العباسي الأندلسي: سعيد عاشور ، بيروت 974م.
- 7 - تقريب المقرب: أبو حيان الأندلسي ، تحقيق محمد جاسم الدليمي.
- 8 - الذخيرة في محاسن الجزيرة : ابن هشام.
- 9 - الرد على النحاة: لابن مضاء القرطبي، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف.
- 10 - شرح المفصل: ابن يعيش ، عالم الكتب، بيروت.
- 11 - طبقات النحويين و اللغويين: الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة أولى، القاهرة.
- 12 - ظهر الإسلام: أحمد أمين.
- 13 - العوامل المثة: عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق البدرأوي زهران، طبعة ثانية.
- 14 - الفن و مذاهبه في الشعر: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر 1978م.
- 15 - اللغة و النحو: عباس حسن، دار المعارف بمصر، القاهرة 1966م.
- 16 - المفصل: الزمخشري، الكتبة العصرية.
- 17 - المقرب: ابن عصفور ، تحقيق أحمد الجوّاري، بيروت.
- 18 - المدارس النحوية: شوقي ضيف.
- 19 - من تاريخ النحو: سعيد الأفغاني، دار الفكر ، طبعة ثانية.